لامرتين في ربوع الشرق

هي زهرة المحاضرة التي القاها مارون بك شبل في الحفلة التي احياها النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية في فندق الكونتنتال مساء ٢٢ مايو سنة ١٩٣٣ برآسة شاعر الخطرين خليل بك مطران وذلك احتفاء بمرور مائة سنة على زيارة لامرتين للشرق وقد حضر الاحتفال جمهور كبير من نخبة المثقفين والسوريين يتقدمهم مندوب الفوضية الفرنسية ومندوب وزارة المعارف المصرية. والترجمة بقلم الاديب عادل الغضبان

قد يكون من الاسائة إليكم ايها السادة ان احاول تعريفكم بلامرتين قبل الوصول به الى الشرق. فحسبي ان أنقل لكم ما ذكره عنهُ جول لومتر في ختام البحث الذي خصَّه بشعره في كتابه « المعاصرين » حيث قال : « ان لامرتين هو أعظم الشعراء ان لم يكن أنبغهم » أضيفوا الى هذا ما كتبهُ عنهُ الناقد المشهور لويس فيو بعد وفاة لامرتين بايام قلائل قال: «ان لامرتين منذ اكثر من عام لم يكن بين احياء هذا العالم فلم يفعل الموت به الاّ انهُ أثقل نعشه حتى لكأنهُ احتاج الى زمن طويل لكي يستطيع ان ينقل بقايا هيكل كان عظيماً »

وخلاصة ما قاله به هذان الناقدان ان لامرتين كان رجلاً عظيما وشاعراً عظيماً وحديثي الليلة معكم مقصور على سياحته في الشرق ولذلك فاني لن احجم في تصوير الرجل كما كان عن ان أوقفكم على آيات من نثره وشعره بالقدر الذي يسمح لي به وقتكم

كان لامرتين أعظم شاعر حطمت قلبه الاحزان والحسرات ولعل سبب رحلته الى الشرق هو ذلك الحزن الذي كان مستعر اللهب بين ضلوعه لوفاة وحيده في باريس عقب عودته من لندن وكان قد ذهب اليها مستشفياً صحبة والده . لم تمنع هذه الضربة القاضية لامرتين من ان يفكر في رحلته الى الشرق مصطحباً ابنته جوليا العليلة راجياً لها ان تلقى في بلاد الشمس المشرقة والنسيم العليل ما لم تلقه في بلاد الضباب . اما حبه لابنته جوليا فقد كان حبًّا يقارب العبادة وهذه قصيدته المشهورة في رثائها قطعة من فؤاده نظمها آيات من الشعر في البكاء عليها والتفجع على غصنها الذابل . وقد يكون الدافع الحقيقي الى زيارة الشرق هو كون لامرتين شرقيًّا بطبعه فلبى داعي الحنين الى الشرق واستماعه على ما ذكرهُ جول لومتر في هذا الصدد قال :—

«ان لامرتين شرقي كما كثر رؤساء الشعوب فهو كباقي افراد اسرته كابراً عن كابر طويل القامة اسود العينين افنى الانف مرتفع بطئ القدم

« وقد نشأت اسرته في بلدة ما كونى وهي لا تزال عربية حتى ايامنا هذه . ولقد جاء في مذكرات كرندي انهُ في سنة ١٥٧٢ عرفت هذه البلدة رجلاً يسمى ألامرتين وهذا الاسم

مركب لا شك من كلمة الله ولامرتين فيستدل من هذا على شرقية هذه الأسرة »

ومهما يكن في كلام جول لومتر من اعمال الفكرة لاثبات شرقية لامرتين فمن ما لا يرضى به ولا يقبل ان يكون لامرتين واحداً منا. اما هو فقبيل إبحاره من مارسيليا ذكر السبب الذي حداه على زيارة الشرق فقال :

«لم اسمع صيحات الشعوب يتجاوب صداها في ارجاء ذلك الارز الخالد لم ار من فوق ذرى لبنان تلك العقبان تعظم بقبة السماء وهي في اعالي قصور صور الشاهقة لم يتح لي أن أرى تدمر التي ليس لها اليوم الا صدى اسمها كذلك لم ارسل صوتي في جوف مملكة صنون الخالية الخاوية »

كل هذا اراد الشاعر ان يراه كما كان يحلم دائماً ان ينظم ملحمة يلهمهُ بها الشرق ولم يكن احب على قلب هذا الشاعر من ان ينقش على قلبه هذه الكلمات الثلاث : الله والحب والشاعر

في الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين من يوم ١١ يوليو سنة ١٨٣٢ أقلع المركب السمت Alceste بلامرتين وزوجته وابنته جوليا يصحبهم ثلاثة من اصدقائه وهم اميديه دي پارسفال Amédée de Parseval والمسيو دي كاپماس M. de Capmas والطبيب دي لاروايير Dr. de la Royère . ليس السفر بالمراكب الشراعية مثل السفر بالمراكب البخارية ولذلك اضطرت الرياح المعاكسة مركب هؤلاء المسافرين الى الوقوف وقتاً طويلاً فكان القضاء قدّر للامرتين ان يحذو حذو اوميروس وورجيل وان يستلم استسلام عولوس وقد ذهب يبحث عن محبوبته ايتاك وما ايتاك لامرتين الا الشرق الذي يسعى اليه ليجلو عبقريته ويترك لهذا العالم عالم الظلمات والشك والمآسي ثروة تغذيه وتنفح فيه روح الشباب مدة قرن كامل . ذهب لامرتين الى الشرق طالباً على غرار فابليون ولكنهُ ذهب لتثبيت مجده ان لم يكن في سبيل الحصول على مجد جديد

بقي المركب الشراعي يتنقل بركابهِ بين جزيرة كالبسو ومالطه وبلاد اليونان واقريطش ورودس حتى حاذى في آخر اغسطس شواطىء كارامانيا وقد بدت لركّابه القمم العالية البيض التي ذكّرتهم بجبال سويسرا . وفي اثناء مرورهم كانت تبدو لهم وجوه نساء حسان جلسن في ضوء القمر على سطوح المنازل فرأوا في عيونهنّ عيون نساء ايطاليا ولكنها أكثر علوبة وحياة وحنانًا كما رأوا في قدودهنّ قدود نساء الاغريق ولكنها اكثر ليانًا وفي جباههنّ العريضة جباه حسان بلاد الشمال . وفي ظهر يوم ٢٧ اغسطس وصلوا الى قبرص وفي ٥ سبتمبر بعد ان قضوا ٥٦ يوماً في عرض البحار بدا لهم لبنان بجباله البيض العالية تتوّجها قمم صنين المرتفعة حوالي ٣٠٠٠ متر فوق سطح الارض فاخذت لامرتين نشوة من السرور لا توصف رجا بها ان تعود الصحة الى ابنتهِ جوليا اذا ما استقرّوا في هذه البلاد الجميلة الساحرة سنة او سنتين . وفي الساعة التاسعة من صباح يوم ٦ سبتمبر رسا المركب في مرفأ بيروت وهي مدينة قائمة على مرتفع من الارض تغسل اقدامها مياه البحر الابيض المتوسط فبدت لهم منازلها

الحمرا المفتقة وقد امتد الى شرقها سهل خصيب واسع ينتهي عند سفوح سلسلة من جبال لبنان . اما الميناء فيكتنفهُ لبنان من الارض يمنعه عنهُ عصف الرياح وعلى امتداد الشواطىء المجاورة قامت أشجار الخروب والتين والبرتقال والرمّان الى مجموعة من الشجيرات التي يجهلها ابناء الغرب وهناك على اول نتوء من الارض قامت أشجار الزيتون وعلى بعد فرسخ من المدينة تبتدىء سلسلة جبال لبنان بالنهوض فاغرة افواهها تسكب منها الانهار هذه تذهب الى صور وصيدا وتلك الى طرابلس واللاذقية والقمم اللامعة التي يغطيها السحاب تشبه قمم جبال الألب الدائمة الجليد

كان لامرتين يحمل كتب توصية لقنصل فرنسا ببيروت المسيو جي ولكن اتفق ان كان المسيو جي متغيباً عن بيروت في ذلك الحين فاستضاف لامرتين واصحابه المسيو جوريل مترجم القنصلية. ولقد أثرت في قلب لامرتين تلك المناظر التي شاهدها لاول وهلة بعد سفر طويل عاصف. فانها لساعة ممتعة تلك الساعة التي يصل فيها المرء بعد سفر مضن شاق لا يشبه ابداً أسفارنا التي لا تستغرق في هذه الايام اكثر من ثلاثة أيام او اربعة على تلك القصور العائمة من مثل شامبرليون واوزونيا ، أجل انها ساعة ممتعة عند ما يبلغ المرء بلاداً يجهلها فيأخذ بجميل الطرف حوله مبهوتاً كذلك كان تأثير البلاد التي وصل اليها لامرتين على ذلك الركب الذي ما برحت تتقاذفه الامواج في مرفأ بيروت المضطرب حتى قدر له ان يعود بجثمان ابنته بعد انتهاء الرحلة . وان امرءاً تطأ قدماه الارض بعد قضائه اياماً في عرض البحار لكالعليل الذي يقضي ايام النقاهة بعد مرض عضال قال لامرتين يصف اول يوم من وصولهم : —

« لقد قضينا ليلتنا في صفاء وغبطة ونحن في ضيافة مدام جوريل الحلبية الحسناء التي قد حافظت على اللباس الفاخر للنساء العرب من منديل يعصب رأسها الى صدرية مزركشة عُلّق في وسطها خنجر جميل وكان هذا اللباس الشرقي يزيد في جمالها وبهائها»

غير ان لامرتين لم يكن ليرى الحسن الا في ابنته جوليا فاسمعوه يقول: «لم أجد أجمل من ابنتي جوليا في لباسها الحلبي المؤلف من ثوب ذهبي مخطط تتفرع منه شُرُط مزركشة محلاة باللؤلؤ ضمن سلاسل من الذهب هذا وقد استرسلت ضفائر شعرها على كتفيها واخذت تجيل الطرف بيني وبين امها مبتسمة ولسان حالها يقول ما اجملني»

سألت مدام جوريل لامرتين ان يحلد زيارتهم بتذكار ترسله الى ابيها بحلب فخلا بنفسه قليلا ونظم القصيدة المشهورة التي عنوانها «عربية تدخن النرجيلة في بستان من بساتين حلب»

كان المنزل الذي اختاره لامرتين لسكنه في الحي الذي تقوم اليوم فيه مدرسة راهبات الناصرة وقد يكون كثيرات منكنّ ياسيداتي قد تلقين علومهنّ هنالك وهي تبعد مسير عشر دقائق عن البلدة ويكتنف الطريق المؤدي اليها سلسلة من الأشجار العظيمة الرامية بثمارها على رؤوس المارة . وكان المنزل وهو مؤلف من خمسة بيوت متفرقة تجمع بينها سلالم خشبية او

بعض ثمرات يشبه مجموعة «فيلا» ايطالية على طراز تلك التي نراها على شواطىء لمرن

وصل لامرتين الى سورية بعد أشهر من افتتاح ابراهيم باشا الكبير لها وكان هذا القائد العظيم يكرم العلم والادب شأن جلالة مليكنا فؤاد الاول فاستمع بقدوم الشاعر العظيم حتى أمر كل القواد المصريين ان يحتفوا به ويكرموه الاكرام اللائق به وكان لامرتين إذ ذاك في ابان مجده فيما نشره من «التأملات» و«الانغام» وهو منذ سنة ١٨٢٩ عضو في المجمع العلمي حلّ محل الكونت دي دارو . وبعد وصوله الى بيروت باربعة أيام زاره الحاكم المصري حاملاً اليه تحية سيده ورعايته طول مدة اقامته وكان لامرتين قد سمع بابراهيم باشا وعظمته وكانت الألسنة إذ ذاك تتناقل عنه الحكاية التالية :

لما دخل ابراهيم باشا بيروت وصار على مسافة قريبة من بابها اعترضت سيره حية عظيمة زحفت على الرمل حتى وصلت الى جواده فاجفل هذا وهرع بعض العبيد الحفاة الى ضرب الحية فاسترقفهم ابراهيم باشا باشارة منه ثم استلّ سيفه وضرب به الافعى فشطرها نصفين وروى لنا لامرتين بعد هذا ان الجند صاح صيحة اعجاب بشجاعة قائده الذي ابتسم واتم سيره متفائلاً بالنصر الذي ابتدأ بهذه الحادثة

اغتنم الامير الفرنجي (كما كانت العامة تسمي لامرتين) فرصة تمتعه برعاية ابراهيم باشا وذهب يزور اللادي استير ستانهوب في عزلتها في جون

كانت اللادي ستانهوب ابنة اخي وليم بت (الوزير البريطاني) . فبعد موت عمها لم تستطع ان تتحمل حياة الالم فهجرت انكلترا الى غير رجوع

جاءت الى الشرق وهي فتاة في ريعان الشباب تتمتع بقسط كبير من الجمال والفن والشجاعة والذكاء فاستقبلت استقبالاً حافلاً حيثما حلّت وكانت رحلتها الى تدمر عاصمة الزباء وإقامتها هناك مدة قد اكسبتها لقب ملكة تدمر . وبعد حوادث عدة اظهرت فيها من الشجاعة والاستخفاف بالموت ما طبّت بذكره الالسن انقطعت بما بقي لها من ثروة في دير من ادبرة جون كان حاكم عكا قد وهبها اياه . ود لامرتين بنفسه الشاعرة ان يزورها ولو قطع عليها عزلتها لما هي فكانت تأبى كل زورة تفكر عليها مناء حلوتها غير ان شهرة الشاعر حملتها على ان لا تتأخر في استقبال زائرها . وكان ذلك في الساعة الثالثة في يوم من ايام اكتوبر سنة ١٨٣٢ فاستقبلته في منزل اشبه بوكر النسر تحيط به ظلمات لا يستطاع معها ان يستوضح قسمات ذلك الوجه النبيل . وما كاد لامرتين يصل حتى نهضت من مضجعها وخفت الى استقباله وكانت اذ ذاك في السنة السادسة والخمسين من عمرها الا انها ما زالت مشرقة الوجه وضاحة الجبين . ان المشيب ينهب النضارة والزهو ولكن الجمال اذا كان ممثلاً في التقد المشوق والقسمات المنتظمة والعظمة فهو يتغير مع العمر ولكنه لا يزول . تجاذب الزائر والمزور الحديث فكان من كلامها له :

كان يجول في خاطري ان كوكبينا صديقان وها اني ارى والبشر يفعم قلبي ان هاجسي لم يخطىء فان قسمات وجهك التي اراها ووقع خطاك الذي سمعته وانت تجتاز الممرّ كل هذا جعلني ألاّ اندم في قبولي زيارتك. ان لي مشاركة في علم الفلك فهل تريد ان انظر في مستقبلك

غير ان لامرتين الحكيم كان يخاف جداً من الحقيقة وكان يحب الحياة حبًّا جمًّا ولو انهُ كان يتمثل الموت في كثير من قصائده فخشي ان يتقلص عنه ظل السعادة في استماعه لعرافة ولو انها اللادي استير ستانهوب فقال : —

عذري يا سيدتي اخشى إن انا استوضحت امر مستقبلي مخلوقاً من الناس ان ادنس هيكل الله الذي يخبيء لي هذا المستقبل . انا لا اعتقد الاّ بالله والحرية والفضيلة وليس غير الله من يملك الحقيقة اما نحن فلا نملك منها الاّ الايمان. ان المسيح الذي اومن به قد جلب للارض الدين القويم المسيح الذي لم يعرفه من قبل ذكاء البشر فالدين يعرف بثماره ومبادئه فثمار المسيحية هي غير محدودة كاملة الهية فالدين نفسه اذن هو إلهي

قالت لكن أترى العالم في الاجتماع والسياسة والدين حسن النظام ألا تشعر ان في نفسك حاجة الى المنقذ المنتظر ؟ قال:

ليس من يشكو من النظام الاجتماعي والسياسي والديني شكواي منه ولئن انتظرت انت المهدي فاني انتظره مثلك بفارغ الصبر. اني ارى كما ترين في معتقدات الانسان القلقة في ظلام افكاره في خلو قلبه في هيأته الاجتماعية في كل هذه التقلبات السياسية ارى في كل هذا عناصر انقلاب شديد . ولكني اعتقد ان الله يظهر دائماً في كل ما يعجز عنه البشر . اعتقد بمنقذ مقبل ولكني ارى فيه المسيح الذي تنبأ عنه الله فأنا انتظره بشوق يفوق شوقك

قالت اعتقد كما تهوى فاني استشرت الكواكب فقالت لي انك شاعر وان لك كواكب عدة هي كلها متحدة على خدمتك واسعادك فستعود انت الى الغرب ولكن لن يطول بك المقام حتى ترجع الى الشرق فهو وطنك . انظر الى قدمك الى بطنها المرتفعة عن الارض ارتفاعاً يمر من تحته الماء فهي قدم العربي قدم الشرقي

وعلى هذا استمر حديثهما اللاذع الغريب عما لا طائل تحته فان اللادي ستانهوب شعرت بعطف شديد على لامرتين فخصته بضيافة شرقية كريمة وطافت به في انحاء حدائقها الجميلة اللابسة من وشي الطبيعة ثوباً سندسيًّا وقد انتشرت فيها رائحة الياسمين وازدانت ارجاؤها بالبرك من الرخام تنسكب فيها المياه كسيل من البلور وقامت الاشجار منبراً لكل انواع الطيور. وما زالا يطوفان حتى وصلا الى باب مغلق ففتحته وأرته جوادين من الجياد العربية الاصيلة كانت تقدر لها وهي العرافة مستقبلاً باهراً ثم لما انقضى الليل ودّعته بقولها : —

تذكر انك تارك صديقة متعزلة في لبنان تمحيته وحياها بتحية عربية وخرج وزار لامرتين

بعد اللاذي ستانهوب الامير بشير الكبير وقد احتفل اخيراً في بيت الدين بتذكار هذه الزيارة

ان الامير بشير هو لا شك بعد الامير فخر الدين اكبر حكام لبنان شأناً ولئن كان حذراً ذا دهاء وحيلة مثل لويس الحادي عشر فلانه اراد ان يجعل من لبنان بلداً كبيراً ولم يكن ذلك سهلاً في بلاد كسورية تتلاعب بها الاهواء الشرقية والمطامع الاوربية المختلفة الاغراض. فهو اول من عبّد تلك الطرق التي كانت دروباً تقطع والبغال فاستطاع الناس في عهده ان يتجولوا في انحاء الجبل بلا خوف. ذلك هو الشرط الاساسي لتقدم يريد ان يتقدم. كذلك كان من العدل على اعظم جانب فقد ضرب على ايدي المستبدين من امراء الجبل ولعل احسن ما يسجل له بمداد الفخر ان لبنان على عهده كان ملجأ امناً لضحايا الدين والسياسة

اهتمّ الامير بشير مدة نصف قرن بالقيام بمنشآت سلفه ولقد اضطر اربع مرات الى ان يهجر لبنان فكان يرجع في كل مرة قوياً شديد العزم وافر الهيبة. والامير بشير هو مثال صادق للامير الشرقي الذي يلتي في القلوب الروعة والهيبة والاحترام بدهائه وذكائه وقسوته حيناً ولينه حيناً آخر فاستطاع ان يضمن للبنان حياة رغيدة ولو انهُ اثار حفائظ الاحزاب المختلفة بعضها على الآخر وكان في الاساطير اللبنانية يلقب بنابليون سورية حتى تنازل عن الامارة بعد مؤتمر اوربا سنة ١٨٤٠ فسمح له ان يعتزل الحكم في جزيرة مالطه التي انتخبها مقراً له ثم سار منها الى القسطنطينية فمات فيها سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٧ سنة وكانت مدة حكمه ٥٣ سنة وذلك من سنة ١٧٨٧ الى ١٨٤٠ وهي مدة ما قضاها في الحكم حاكم قبله

كان الامير بشير في غضون زيارة لامرتين للشرق في ابان مجده قد اتخذ بيت الدين مقراً له وها نحن اولاء نتبع لامرتين في زيارته لهذا الامير العظيم

تقوم على جانبي الطريق سلسلة جبال يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ الى ٤٠٠ قدم كأن بارئ البشر قد فصلهما حديثاً بضربة من مطرقته

بعد مسير ساعة في هبوط وصعود يصل المرء الى ذلك القصر العظيم قصر بيت الدين بالقرب من دير القمر. يرى المشاهد هناك وادياً عميقاً واسعاً يفيض نضرة وخضرة وقد انتشرت على سطوح الجبال بعض القرى ثم اذا اتجه ازاء بنظره نحو الافق شاهد البحر من فوق قمم بعض التلاع

وفي بطن الوادي مرتفع من الارض يقوم عليه القصر العالي كانه أحد الابراج يحيط به صخور قد نبت بين شقوقها العشب الاخضر وقمة القصر تشرف بعظمة على بقاع بيت الدين. وكأني بالامير كان يعنى بالعظمة حتى قصره بكل ما يدل على ذلك وجلب له المياه باقنية يبلغ طولها ثلاثة فراسخ اما غابة اسطبله وعدد الصيد والقنص فيه فحدّث عنها ولا حرج فقد تناقلتها الالسن على انها أساطير لغرابتها

في زوايا القصر وداخله تتحدر عيون المياه وفي الصدر بعد سلسلة من الاعمدة الموصولة

بالحديد والزجاج يشاهد الداخل بيراً هائلاً قد أسند رأسه الى قدميه المشتبكتين ولا شك ان الامير قد استعار نظره الحاد من هذا البير الجاثم على انه لم يقلق لامرتين

كان الامير جالساً في زاوية البهو على مضجع أحمر وهو شيخ جليل حاد النظر اغبر اللحية زاهي اللون تتدفق منه الحياة وكان مرتدياً ثوباً أبيض ومتمنطقاً بنطاق من الكشمير وقد ظهرت بين طيات ثوبه قرب خصره قبضة خنجر طويل عريض محلى ببافة من الالماس في شكل رتقالة . وكان لامرتين قد قدر في الامير ثقافة ومعرفة بالامور وذكاء في تصريفها قد يندر في ذلك العهد ان تجتمع في امير شرقي. وكان قد عقد له قبل ذلك على حسناء تبلغ من العمر ١٥ سنة وكان هو إذ ذاك في التاسعة والستين من عمره وعلى زعم لامرتين انه كان في الثانية والسبعين ولكن لامرتين لا يُسأل عن التدقيق وانما يسأل على الوحي والالهام. غير ان هذه الحسناء قد يكون عمرها ٢٠ سنة اذا اتبعنا قاعدة اجدادنا في معرفة السنين من ان سنة المرأة ١٥ شهراً

استقبل الامير بشير لامرتين استقبالاً فخماً فطاف وإياه على كنوزه في قصره الملكي حتى خيّل للشاعر الفرنسي انه يطوف في قصر من قصور الف ليلة وليلة وبعد حديث طويل اعجب فيه لامرتين بحكمة الامير ونبله دعاه هذا الى مرافقته الى قاعات الحمام

لن أصف لكم ايها السادة هذه القاعات فانتم تعرفونها فهي ككل حمامات الوجهاء في الشرق. وكأني بالامير اراد ان يغرق في اكرام لامرتين فدعاه الى الاستحمام معه هو ورفقته غير ان لامرتين تنحى بلطف عن هذه الدعوة لانهُ رأى فيها مظهراً من مظاهر الحفاوة التي اراد الامير ان يخصه بها. وانتهى بلامرتين المطاف الى اسطبلات الامير يسمع منها صهيل الجياد العربية الاصيلة ومن لم يزر هذه الاسطبلات او اسطبلات دمشق فلا يعرف شيئاً عن الجواد العربي ومن فاته ذلك فليقف عليه في قصيدة لامرتين التي يصف فيها الجواد «سلطان» وهو الجواد الذي اشتراه لامرتين لابنته جوليا وكان آخر نزهة قامت بها عليه نزهتها في انحاء القديس دعتري

رجع لامرتين الى بيروت في ٧ نوفمبر واستطاع في مأدبة أدبها بعض فضلاء بيروت ان يرى ابناء الامير بشير نزلوا الى بيروت بأمر من ابرهيم باشا لحقد شوكة من محاولون شق عصا الطاعة . قال لامرتين يصفهم :

« ان هؤلاء الامراء ولاسيما البكر هم عنوان على الحضارة الشرقية التي هي في مستوى حضارتنا بل هي أقدم وانقى مورداً واكمل اصلاً فانهُ يبدو لعين الرائي النزيه ان ليس هناك فرق بين ما عندنا وعند الشرقيين من نبل وقسوة حكيمة في التقاليد والعادات فنحن قوم حديثو الحضارة خرجنا من حضارات قاسية ضخمة ناقصة امامها فتشعر عند رؤيتهم انهم ابناء بيت أصيل وحفدة قوم عرفوا منذ القدم بالحكمة والفضيلة »

علينا نحن الشرقيين ان لا نؤخذ بجمال هذا المدح وان لا ننتشي برحيقه المسكر فقد يحتاج

الى تحقيق ولعمان نظره اما الاسرة الشرقية والفتاة الشرقية فقد وصفها لامرتين بما يأتي :

« الاسر القاطنة في سفوح الجبال ليس فيها أثر من الوحشية . والقروي منهم أعلم من القروي في اريافنا فضلا عن انهُ اليَن تريكة واكثر مسالمة واقدر على العمل وأصبر . وكثيراً ما رأيت في الحقول وجوه نساء وفتيات ما كان رفائيل ليراها في احلامه الغنيّة »

لم يخطىء الشاعر الذي يقول في وصف سورية

« ان بلادي هي الارض التي ينبعث السحر من عيون غادتها اللواتي يشبهنَ العذراء في جمالها الخالد »

سُحر لامرتين بكلّ شيء رآه في ربوع الشام فلا عجب ان تقرأ في « هبوط ملاك » كل الانغام السحرية التي استلهمها لامرتين من لبنان وأهداها اليهِ . وصف لنا لامرتين جمال جبال القديس ديمتري ونهر بيروت يوم كان يتنزه مع ابنته جوليا في تلك الانحاء فلما جابه تلك المحاسن الطبيعية الخلاّبة لم يستطع الاّ ان يصيح باعجاب

« اللهم ما اعظمك ان في كل بقعة من هذه البقاع شعاعاً تعكسه تلك المرآة التي تصور فيها نفسك »

طالما رددت الافواه صيحات الاعجاب والدهش امام جمال الطبيعة فما بالك بالمنبع البعيد الغور اللانهائي الذي يفيض بذلك الجمال . شاركت لامرتين ابنتهُ جوليا في اظهار ذلك الاعجاب فلم تمالك هي ايضاً ان صاحت قائلة « ما اكرم الله الذي قدر لي ان اشاهد هذه المظاهر من الجمال »

والحق لا يظهر صريحاً نبيلاً الاّ على افواه الاطفال ولكنها كانت النزهة الاخيرة التي قام بها لامرتين مع ابنته جوليا التي يحبها حبًّا يقارب العبادة . ففي ٦ دسمبر سنة ١٨٣٢ في ذلك الوقت الذي كان يخيل فيهِ الى لامرتين ان ابنته جوليا متمتعة بالصحة والعافية لفظت روحها بين يدي والديها في المنزل الذي اختاروه في ضاحية من ضواحي بيروت حيث ظنوا انهم يجدون فيهِ اسباب السعادة والهناءة . وفي شهر مايو من السنة التالية سار المركب ألسست Alceste الذي جاء بهم الى بيروت في سبتمبر سنة ١٨٣٢ يحمل الى فرنسا جثمان الفتاة المحبوبة حيث دفن في مدفن العائلة في سان بوان . اما لامرتين وزوجته التاعسان فقد عادا الى فرنسا في الوقت نفسه على المركب لاسوفي La Sophie

كذلك اراد الحزن والاسى ان يظل لامرتين متعلقاً بالشرق وطنه الثاني

قلت لكم ان لامرتين كان يظهر اعجابه حيثما حلّ وايما اتجه سواء كان ذلك فيما كان يراه من جمال وروعة او فيما يقف عليه من اخلاق الناس . واذا رغبتم ان تطلعوا على رأي لامرتين في الطائفة المارونية التي يرعاها في هذه الآونة شيخ بكركي الجليل فها كم ما قاله في هذا الصدد :

« ان الشعب الماروني يؤلف شعباً منفرداً في كل الشرق رجاله طوال القامة وسام الطلعة لهم نظرات تدل على الصراحة والفخر وابتسامة حلوة فطنة عيونهم زرق وانوفهم قني ولحاهم

شقر وحركتهم نبيلة وصوتهم خطير وعاداتهم تدل على التهذيب والادب فكأنهم جالية اوربية رماها الدهر بين قبائل الصحراء . على ان قسماً منهم عربية وان من يمر بقرية من قراهم ويرى الشيخ جالساً امام داره ويسمع صهيل جياده ويشاهد اغصان القرية تحيط به وهم لا يسون اغلى ثيابهم وعمائمهم ومتقلدون خناجرهم لا يشك الا انهُ امام شعب متحدر من سلالة الملوك

«ان الموارنة هم ابطال شجعان ميالون بطبيعتهم الى العزو والقتال كباقي سكان الجبل فاذا دافعوا عن جبلهم دافعوا عنهُ دفاع رجل واحد ولا مغالاة اذا قلت ان اللبناني هو شعب بنفسه»

يقال ان لامرتين تغنى شعراً بوادي حمانا وهذا خطأ فان اشهر قصائد لامرتين من مثل «التأملات» و «الانغام» نظمها قبل سفره الى الشرق ولم ينظم بعد عودته الا مجموعته المسماة «وحي الاستجمام» اذا استثنينا «جوسلان» و «هبوط ملاك» وليس في هذه المجموعة ما يدل على زورته للشرق الا قصيدة «الحسناء تدخن النرجيلة» و «القفر» و «سلطان: الجواد العربي» . اما وادي حمانا فان لامرتين قد وصفه نثراً وصفاً بديعاً سأذكر لكم شيئاً منهُ

لما رجع لامرتين من فلسطين وقع في ابنته جوليا غادر بيروت في الثامن والعشرين من شهر مارس ميماً بعلبك ودمشق مارًّا ثانية بغابات الصنوبر حيث يلتقي في كل خطوة يخطوها تذكارات مؤلمة . ويرجع عهد هذه الغابات فخر الدين الى ما قبل القرن الثالث عشر وهي ذات مساحات واسعة غربي المدينة وعند سفوح الجبال

صعد لامرتين الجبل بحاشيتهِ المؤلفة من ٢٦ جواداً ومن ثمانية عبيد مشاة او عشرة كانوا خدمه وحراسه فرَّ بطرق صخرية صفر منقطة بلون وردي تبدو للناظر اليها عن بعد انها منشحة بثوب بنفسجي وردي يسحر الالباب وليس ما يسترعي النظر في هذه الرحلة حتى بلغ حمانا. قال يصف هذا الوادي

«ان اروع منظر يستطيع المرء ان يرى بدائع صنع الله هو وادي حمانا فهو وادٍ يبتدىء بهوة مظلمة عميقة حفرت في قلب صخور مرتفعة تكللت بالثلج وهذا الوادي يمتاز بسيل من الزبد يتحدر من قمم الجبال ويخط في تلك الظلمة اخاديد متحركة ساطعة تعرض قليلاً قليلاً حتى ينسكب سيلها من شلال لآخر ثم يتجه فجأة الى المغرب ويسيل في وادٍ متسع مختاراً ما يعترضه من بطاح وتلاع

«ما شعرت قط بجمال الجبال قبل رؤيتي لهذه البقعة المنشحة بجمال حزين خطير حلو يختلف عن جمال البحر وجمال السهول فهو جمال يقبض الصدر بدل ان يشرحه كأنهُ صورة للعاطفة الدينية في ايام المحن بدل ان يكون صورة لعاطفة الدين ايام الطمأنينة»

بعد ان غادر لامرتين حمانا وصل الى سهل البقاع ثم ذهب الى زحلة حتى وصل الى بعلبك في اواخر مارس سنة ١٨٣٣ متروك الكلام هنيهة عن بعلبك وارز لبنان وننتقل مع الشاعر الى دمشق

حط لامرتين رحاله بدمشق في اول ابريل فتجلت لديه هناك صور الشرق بأجلى مظاهرها. يسوءني ان الوقت لا يتسع لي حتى اقضي معكم ومع الشاعر وقتاً طويلاً في هذه المدينة نستجلي بدائعها من قصرها الذي لا يدرك الطرف آخره وحراجزها الرخامية ما بين صغير وسرد الى غابات ما ذنها الى نهرها ذي السواقي والجداول التي لا تحصى الى بساتينها المزهرة الزاهرة الى قصورها ومنازلها وقراها . ان العالم كتاب وكل خطوة نخطوها في اسفارنا تقلب لنا صفحة منهُ والذي لم يقرأ منهُ غير صفحة واحدة فهو لا يعرف شيئاً كثيراً ولذلك يجدر بنا ان نقلب باقي صفحات هذا الكتاب السحري

لقي لامرتين في دمشق طبيعة جميلة ونساء أجمل مما رأى حتى وصوله اليها . ان المرأة في دمشق قامة كاملة كما في التماثيل اليونانية ونظراً تلمع منهُ الحياة كعادات سكان الجنوب وبساطة في الهيئة كما هي الحال في الشعوب الاولى فاذا اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في وجه صبية حسناء منظم القسمات كاد جمالها يكون كاملاً

يشعر المرء ازاء هذا المنظر الجميل بعاطفة من الاغتباط ليست هي عاطفة الحب ولكنها عاطفة حب الذكاء حب الفن حب الابداع المجسم في عمل كامل واتفق للامرتين ان يجلس الى فتاة قد خصها الله بكل هذه المواهب في مجتمع من المجتمعات التي سارعت الى اكرامه والحفاوة به وكان الحفل غاصاً بشعراء البلدة فتنافسوا جميعاً في التغني شعراً بجمال هذه الفتاة الحسناء فنظم لامرتين لهذا الغرض قصيدته المشهورة في حسناء دمشق. وكذلك كان لامرتين يتنقل من عجيب الى أعجب ومن جميل الى أجمل حتى وصل الى الارز فمنعته الثلوج المتراكمة من ان يدنو منه

كان لا بد للامرتين وهو في طريقه الى الارز ان يمر بطرابلس الشام في ١٤ ابريل فاستقبلتهُ هناك اسرة كانسليس المشهورة وهي أسرة يونانية الاصل يزاول افرادها التجارة فضلاً عن انهم قناصل روسيا في طرابلس ولا يزال الخلف منهم في الشام مثالاً يحتذى في الكرم والنبل والجمال

وصل لامرتين الى الارز الى أشهر ما جادت بهِ الطبيعة وتغنى بجمالهِ الكتاب المقدس والانبياء الذين كانوا يرون في الارز عند القوة النباتية التي تجعله يعيش أبد الدهر، نفنى على شاكلة الغزيرة في الحيوان والذكاء في الرجل فكانوا يعتبرون الارز الهاً اتخذ له شكل الشجر

على ان هذا الشجر يقلُّ قرناً فقرناً ففي الوقت الذي وصل فيه لامرتين اليه لم يبق منه غير سبع شجرات يرجع عهدها الى العصور الاولى

وفي شهر يونيو من كل سنة يصعد سكان بشري واهدن وما حواليهما الى الارز يسمعون القداس في ظلال الشجر . فما أجمل تلك الصلوات التي يرن صداها في تلك الغاب وما أجمل ذلك الهيكل المجاور للسماء. فاحب بالارز الخالد الذي ظل ويظل اجيالاً مختلفة من الناس كلها

تدعو الله وتصلي للعلي بلهجات وعقائد مختلفة على انها كلها تشيد بذكره في أعماله المجيدة وتمجده في مجالي الطبيعة التي تظهر قوته وعظمته

ولما وصل لامرتين الى الارز كان ذلك حوالي ١٤ ابريل والثلج لم يكد قد يختفي فكان من الصعب جداً على لامرتين ومحاشيته ان يقتربوا منه فظفروا مع الجهد الذي بذلوه على بعد ٥٠٠ أو ٦٠٠ خطوة فلم يستطع ان يمس بيده بقايا الطبيعة والدهور فسلاه ذلك وآلمه

كنت اود ان اركبكم أيها السادة في هذا العلاء الالهي غير اني وعدتكم ان ارجع معكم الى بعلبك فلنرجع اذن الى ٢٩ مارس حيث كان لامرتين يجتاز قمم صنين الى ان انتهى بعد جهد ولأى الى قمر عين شمس

يمتد من ناحية الافق مجموعة خرب صغر القت عليها الشمس الغاربة حلتها الذهبية هي بعلبك المحبوبة بجدرانها الضخمة واعمدتها العظيمة

يعجز قلم الكاتب وريشة المصور ان يصف تأثير هذا في نفس مشاهده

في مجرى النهر بين الحقول في جذوع الشجر الباقية على الزمن في كتل الجرانيت الاحمر أو الاغبر في الرخام الابيض في الحجر الاصفر في قطع الاعمدة والتيجان المحلاة بالبارز من النقوش في القبب والعقود والقواعد في التماثيل والاعمدة التي رماها عصف الرياح والزلازل كل هذا يمثل المشاهد بقايا مملكة عظيمة هي صدى الماضي وعلامة الفناء

جن الليل وضرب بخيله ورجله وبدا القمر في السماء الصافية من ذلك المكان فكان لذلك السكون المخيم اكبر الاثر في نفس لامرتين وهو بين انقاض عالم يخيم عليه الموت والفناء بين انقاض هي شهود خرس على ماض مجهول بين انقاض لا تجاريها اي انقاض اخرى في العالم بالقوة والعظمة لقد اوحت هذه الخرب الى لامرتين بقصائد قوية عظيمة توازي عظمتها وقد ختم احداها بقوله يتحدث عن نفسه

«لا اسمع وانا جالس على حافة هذه الهوة العميقة الا صفير الرياح يسمعنيها الهزء والسخرية لقد اثقل الاسى كاهلي واحنى رأسي وصاق به صدري فأصبحت وانا لا فكر لي ولا قلب »

ايها السادة : ان هذه الابيات التي ختم بها لامرتين قصيدته ما هي الا نفثات شاعر لان لامرتين كان عليه ان يحيا ليذهب من سورية الى القسطنطينية ليذهب من قلبه الى فكره ففي سورية خلف قلبه والقسطنطينية خصها بفكره . لقد عاش لامرتين بعد ذلك عمراً طويلاً وكان يحلم دائماً وهو رجل الدولة والخطيب المصقع في تحقيق امانيه قلبه وفكره

ولا اخال الا ان لامرتين لو عاش حتى هذه الايام لكان مغتبطاً مسروراً اذ يرى ان ما كان يضمره لبنان من آمال وأمان قد تحقق ، واذ يثبت له ان الشعب اللبناني فيما بذله من صبر وجهد وتضحية قد كوفئ او سيكافأ — على ما نتمناه له — باستقلال مجيد سعيد تام